المسيحي امام العناية الالهية

ما يقوله لنا الايمان وما نراه فعلاً

للأب جستون ساله اليسوعي

ترجمه

الأب جبرائيل عتيق اليسوعي (+)

ان الله حاضر في كل مكان ، وإلا فلا يكون إلهاً . هو حاضر في العالم ، وفي الحياة البشرية ، يهيمن على أحداث التاريخ عامة : ويسهر على كل كبيرة وصغيرة في وجودنا . وإثبات وجود إله شخصي إنما هو إثبات لوجود العناية الإلهية وإثبات لأن الله يرى كل شيء ويريد كل شيء ، بحكمة وقدرة ومحبة .

غير ان هذه الحقائق ، على صحتها ، قد يخالفها الواقع مخالفة صارخة . فيظهر لنا هذا العالم فاسداً في جوهره ، مؤذياً في أحداثه . فالفوضى فيه شاملة . والله الواجب ان يكون حاضراً دائماً في كل مكان ومتسلطاً على مجرى التاريخ البشري يشعرنا بانه كثيراً ما يكون منصرفاً عنه ، كأنه ، وهو القدير ، متغاضي عن الشر أو مواطئ عليه . هذا الاب الذي يجب علينا أن نراه ساهراً على خيرنا ، نراه غير مكترث لنا : وقليلاً ما يهتم بمتاعبنا وأحزاننا وآلامنا .

ويحتج الزنادقة على مسلك هذا العالم الغريب المضطرب ، يحسبونها حجة قاطعة حتى لينكروا وجود الله ويجدفوا على اسمه كمن يسمنا الكتاب

تضاحكهم وقولهم : « أين إلهم ؟ — ليس إله » (مز ١٣—١٤) وكثر هالك وتجديفه في قوله : « عذر الله الوحيد أنه غير موجود » .

إنّا ليغضبنا هذا الإنكار وهذه التجاديف . ولكن ما العمل وهناك أمور غامضة تغشى هذه المشكلة ؛ أو بالأحرى أمام هذا السر . لان العناية ليست مشكلة بل هي سر . ولسنا نبحث عن جواب لحل هذه المشكلة ، لكي ننتقل الى غيرها ؛ بل غرضنا أن نعرف الموقف المسيحي الذي يتطلبه السر بنوع دائم .

سر لا مشكلة ، أعني اننا لا نرضى أبداً أن نعد العالم الجسماني والروحاني جهازاً محكماً ركّبه الله وترك لنا أمر البحث عن معرفة تكوينه... فان فولتر ، وليس بمعلم كنسيّ ولا هو بفيلسوف كبير يقول : كلما أنعمت التفكر ، شق علي أن أعتقد ان هذه الساعة قد وجدت من دون ساعاتي .

وتمكن فولتر أن يبرهن بصورة بدائية على وجود الخالق من وجود المخلوق ، غير أن الصورة باطلة ، إذا ألفت في روعنا أن العالم هو جهاز دقيق يدور بلا صرير ولا مفاجآت منكرة . فالعالم ليس ساعة ولا الله ساعاتي . العالم جوهرياً هو عالم البشر ، مع مفاجآت غير منتظرة . والعناية شيء آخر غير الإشراف بارتياح على دورانه المنتظم .

فاذا أردنا أن نرى صورة صحيحة للعناية ، فلا نطلبها من الفلسفة بل من الكتاب المقدس ، فهو يوحي إلينا بأن العالم البشري بجملته وبمصير كل منا فيه إنما هو رواية يمثلها الله بطرق محيرة مدهشة .

الذي يتكلم ويعمل ويملك

ان التوراة تصرح عن الله ، بكثير من التأكيدات الأساسية ، وهي بذاتها قاعدة تعليم العناية .

هذا الإله الحي ، هذا الخالق الذي هو في داخل الخلق لا يبرح يعمل ويمنح جميع الكائنات الحياة والقدرة على العمل ، يسخّن الأرض بالشمس المشرقة ، ويثير الزوبعة من قلب الريح ، ويخصب الأرض بالمطر

يوزعه على الأرجاء، هذا الإله الحاضر في كل مكان من العالم الطبيعي (عاموس ٤) الذي يدعوه الفلاسفة العلل الثانوية ولا يأخذ بقوم الكتبة الإلهيون: هذا الإله هو بأولى حجة حاضر وعامل من صميم القصة البشرية. وليس العالم المادي الا الفرصة او المسرح والزخارف. وهذه المأساة المتعددة الفصول لم يكتف الله بان يبني مسرحها ويؤلف روايتها ويدرّب ممثليها. وانما هو تعالى الممثل الأول الذي يسيّر مجرى الرواية من مقدمتها الى ختامها.

هو نفسه دعا ابرهيم جد الشعب الاسرائيلي وحدّد ووجّه بهذه الدعوة كل التاريخ المقدس، ملحمة الشعب المختار. هو الذي أغرى فرع يعقوب ان يقيم في مصر، حتى اذا ما جار عليه فرعون أصدر إليه بلاغاته فأرغمه باساليب رهيبة أن يراخي من ضغطه، ثم اجازهم من العبودية الى الحرية. وكان هو الدليل لتلك القافلة العظيمة في صحاري سيناء: يموّنها في المجاعات ويرويها عند الظمأ. هو الذي فتح أرض الميعاد: قائداً شعبه بنفسه: هو الذي يحكم ويملّك باختياره الملك شاول ويستبدل به عند معصيته داود. هو الذي أطلق أقدام الغزاة على اسرائيل عقوبة لهم على كفرهم. وعندما كانت الامم الغريبة المنفّذة لقضائه تفتخر مستكبرة بانتصاراتها: كان ينبذها ويسحقها نبذ النواة (اشعيا ١٠) هو صانع الحرب والسلم.

وإنا نجد هنا إحدى فكر العهد القديم الأساسية: بخلاف ما كان ينسب الى الآلهة الوثنية من القدرة الهائلة وما لا يذكر لهم من سيرة حسنة – اولئك الآلهة الذين كان واجباً أن يخشاهم البشر كالوباء او كالشواري، دون ان يكون لهم أقل احترام – أما إله التوراة فهو القدّوس ومن لا يقدر الانسان بسبب ذنوبه أن ينظر اليه ويبقى حيّاً (اشعيا ٦: ٥) وبينه وبين الشر تناقض مطلق: ومما يلاحظ أنه اذا كانت المسافة بين الله والانسان غير محدودة: فهل ذلك لكونه تراباً أم لكونه رجاسة وخطيئة.

ومن الواضح ان رب العدل والقداسة يجب أن يدخل في التاريخ لينصر القداسة والعدل.

دهشة النفوس أمام أحداث العالم

نظرة الى ما في التوراة نفسها . فبجانب ما تثبته عن الإله القدير العادل القدوس والطيب القلب ، وبجانب ما تعلمه عن فعله الفعّال في العالم ، يتردد صدى فضائح النفوس ، في جوانب التاريخ البشري ، كما تراه في واقع الحال من تراكم الظلم والفوضى والعنف .

فهذا الشعب المحبوب من الله وقد خصّه بكثير من العجائب لم تتحقق له المواعيد الإلهية ، الشعب المختار الذي الله سوره وصخرته وحصنه المنيع ، قد حطّمه أعداؤه ، فهو هدف النكبات الهائلة . لا شك أن هناك جواباً يخطر تلقائياً على البال وهو « ان ليس الله الذي أخلف وعده بل نحن المخلفون . لاننا لم نقم بما يجب علينا ، وتلك هي خطيئتنا العظمى » .

لكن هل يكون الفائزون أبراراً ؟ أليسوا مجرمين شرّاً من ضحاياهم ؟ أما تكون عاقبة فوزهم للمزيد من تصلبهم في كبريائهم واستحالة ملك الله على نفوسهم ؟ اما ان انتصارهم هو انكسار لله ؟

نجاح الأشرار وشقاء الأخيار

وإذا فرضنا أن ما ينزل بالشعوب من البلايا انما هو بسبب كفرها بالله ، فكيف نفسّر مآسي النفوس الفردية التي تبدو لنا كألغاز مخزية . منها تمسكنا بمسألة التضامن بين الفرد وبيئته فلا يسعنا إلاّ التسليم بالمسؤولية الشخصية : فالانسان لا يؤاخذ إلا بما أتى هو نفسه من الذنوب . وكم نرى في كتب العهد القديم من الحقائق المدهشة عن يسار الأشرار وبؤس الأبرار .

لقد كان ينتظر بحسب قوانين العدل أن ينال الخادم الأمين من السيد الكريم أجراً من السعادة الأرضية جزاء تفانيه في الخدمة وان ينال الشرير العاصي عقاباً عاجلاً رادعاً . ولكن يا للخيبة ! فكثيراً ما يحدث العكس . مشكلة رهيبة تصطدم بها الضمائر المستقيمة فتزعزع جوانبها . « أمّا أنا فأوشكت قدماي أن تزيغا اذ رأيت سلام المنافقين . فإنهم لا أوجاع لهم الى الموت وأبدانهم سمينة ... إذن باطلاً زكّيت قلبي » . وكنت مضروباً بالنهار كله . (مزمور ٣٣) .

مخاصمة الضمير المستقيم الغامضة

ما ملحمة ايوب الا المخاصمة الغامضة للضمير المستقيم، تجاه عالم يهزأ فيه النجاح والإخفاق من الفضائل والرذائل، هي مسألة نفس وَلْهى تجادل إنما كأنه يحارب الصدّيق أيّ حرب. هوذا أيوب مفجوع بماله وولده ومضروب بجسده. هو في محنة لا نحسبها الا عقاباً، وهو يحاول باحثاً مخلصاً ولا يرى أنه مذنب. ثم يفكّر في مجرمين مشهورين يعيشون سعداء لا تصل المحن الى حصونهم. ويابى الآ ان يدحض وهو غاضب كل حجج أصحابه في سعادة الأخيار وشقاء الأشرار. يحسبون أنهم يعزّونه بكلامهم وما كلامهم الا سخرية وإهانة. وحينما يعجز عن حلّ المشكلة يتركها عن حكمة عرضة للبحث، ولا يجدف بل يتكل على هذا الإله الذي لا تدرك أحكامه (أيوب ٤٠: ٤٢).

هذه بطولة تقضي منها العجب وتشاهد عند كثيرين من رجال العهد القديم شبهاً لها. لقد وجدوا أن هذا العالم الذي يدبره الله ليس فيه نظام ولا عدالة: فوقفوا إيمانهم كله ورجاءهم كله للبحث عن تبريره تعالى: ورفضوا رفضاً قاطعاً ما عرض لهم من الحلول المتقوية مثل: عجز الله، وظلم الله والصدفة. وانجلت لنظرهم تفاهة كل ما خطر ببالهم من الأجوبة: نجاح الأبرار الظاهر وعقوبة الأشرار (الجامعة ٩: ١٠) وارتادوا ما لم يكن واضحاً: كانتظار حياة أخرى، وعاقبة مصلحة، وتغيير روحي. لكل مواعيد الله لاسرائيل وفهم لما يقاسيه البار من العذاب (اشعيا ٥٣) حركة تعليمية ترفع النفوس وتزيدها استنارة.

وكل ما تقدم لم يكن إلا أضواء خشيلة تسير النفوس عليها تحسساً في ظلام السر، مع تيقنهم وجوب تجنب مجادلة الله لا كما حدث لأيوب. فالعبادة في الصمت هي الحب العظيم.

الله في العهد الجديد

كأن العهد الجديد يسدل أستاراً جديدة على ظلمة السر. فانه لا يترك حرفاً من الشريعة يسقط، ويثبت ان الله كلي القدرة وأنه الحكمة

غير المحدودة والعدل السامي . وإذ جاء لكي يكمّل الوحي فقد بيّن بكل وضوح سرّ الجودة الإلهية التي ظلّلا حزّ النفوس ذكرها في صفحات كثيرة من العهد القديم . ان الله أب وليس شعب إسرائيل وحده بجملته ابنه ؛ بل كل انسان من البشر . وعنايته تعالى ساهرة على جميع الكائنات المخلوقة ؛ من العصفور الى زهور الحقول ؛ ولا سيما البشر أعزّ بنيه ؛ فلا دقيقة من دقائق حياتهم تغيب عن حنانه ولا حادث من الحوادث يمكنه أن يمسّهم بدون سماحه : « شعور رؤوسكم محصاة » (متى ١٠ : ٣٠) .

هؤلاء البشر الذين يحبهم ؛ إنه يريد خلاصهم ، ولم يرسل الى اسرائيل وإلى البشرية أحداً منهم ليحررهم بل أرسل ابنه الوحيد « هكذا أحب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد » (يوحنا ٣ : ١٦) فازاء هذا الدليل على الحب كيف لا نؤمن بالحب ؟

إختفاق الله

ولكن بعد التسليم بكل ما تقدم ؛ نرى أن المساعي الإلهية قد أخفقت ، والصعوبة زادت ؛ اذ لسنا كالعهد القديم ، أمام مواعيد متعسفة وآمال غليظة ؛ بل صرنا في جو روحي وفي عهد الخلاص .

واول ما يظهر للعيان هو الإخفاق أو سلسلة من فشل القدرة الإلهية والجودة الإلهية . لان الفساد ما زال شائعاً ، والمخلص الذي كانت البشرية تنتظره وأجيال من الأشواق قد تهيّأت لمجيئه ، كان واجباً أن تستقبله بمظاهر الظفر ، ولكنه اصطدم بعداء وبغض لا يلين . واسرائيل الذي كانت دعوته وعلة وجوده أن يستقبل المخلص قد جحده جحوداً فظيعاً . شعب الله المختار قتل ربه وما كان قد أعدّ لخلاصه أمسى حكماً عليه بالهلاك .

والبشارة الجديدة حين ذاعت بين الشعوب الوثنية أثارته موجة من الغضب ؛ فالعالم الوثني بجملته لم يقبل عليها والمبشرون بالمحبة راحوا ضحية البغضاء .

وما زالت قصة المسيح المحزنة مستمرة . فالكنيسة على ممر الأجيال مضطهدة ؛ لا يتوقف اضطهادها برهة ؛ حتى تقوم العقبات في سبيل أعمالها .

فالله المنهزم في هذا العالم كما قيل. أليس التاريخ ولا سيما التاريخ الحديث مملوءاً من الجرائم والتعدي على الله وعلى الانسانية ؛ هذه الانسانية التي يحبها الله ؟ اما رأى العالم قادة شعوب اغتصبوا الحقوق وداسوا الحريات وتحدّوا الله نفسه ؟ أليس مؤكّداً أن الأقوياء هم الذين يتحكّمون بمقدرات العالم أياً كانت قيمتهم الأدبية أو حضارتهم. كم من شعوب مستضعفة مقهورة لأنها ضعيفة ؛ رغم ما عندها من الكرامة وحب السلام ؛ وكم من دول تجاهر بالكفر وهي تتمتع برفاهية هي محسودة عليها ؛ إمّا لما تملك من موادّ أولى وإمّا لكثرة سكانها.

وكأنه تعالى أمام هذه المأساة لا يحسّ بشيء ؛ فهل يبقى صامتاً كما كان يوم جمعة الآلام المقدسة ، حين ارتفع نحوه ذلك النداء المؤثر : « الهي إلهي ، لماذا تركتني ؟ » (متى ٢٧:٤٦).

سرّ العناية

على أنه في هذه القصة المقدسة التي ظاهرها قليل التداسة والتي تواصلها قصة الكنيسة المعذبة يجب علينا أن نفهم ونحلل بعين الإيمان ماهيّة العناية.

لان طرق العناية لا تدرك إلا بالإيمان ، فيمكن بدون شك وبكل تأكيد اثبات وجود العناية من اثبات وجود إله ذاتي وخالق ، ويمكن بواسطة اعتبارات عقلية إزالة بعض الاعتراضات او التقليل منها ، ويمكن إظهار المضحك المبكي في هذا الانسان الحسير النظر ، او الأعمى الذي يريد أن يحكم على غير المحدود والبعيد كل البعد. ويمكن باظهار غباوة هذا المخلوق الزائل حين يريد أن يحكم على تاريخ الدهور. فيستحيل فهم هذا الكتاب من مطالعة بعض كلمات منه.

« هذا الكتاب يكتبه الله معنا بأسطر قصيرة أو طويلة... ولا يبين له معنى إلا عند نهايته ». وفي هذا التاريخ الذي يبدو غريباً خالياً من الله او مستقلاً عنه ؛ يسترعي النظر فيه مرور الله به من حين الى آخر بتدخله احياناً تدخلاً باهراً يقول فيه : « أنا الرب » كما جرى في تاريخ بني اسرائيل حين أنقذهم من يد فرعون وحين اعادهم من سبي بابل ، وكما حدث في

تاريخ الشعوب بعد المسيح اذ كان يعقب انتصارات الأشرار الشائنة انكسارات عاجلة وانهيارات فاضحة.

ليس من السهل الوقوف على دقائق العناية كلها : فحسبنا أن نصدر فعل إيمان ونستوحي حقائقه العظمى.

اصول السياسة الإلهية

اذا شئنا ان نتصور عمل الله في تاريخ العالم وفي حيواتنا وجب أولا ان نكرر ونؤمن حق الإيمان أن التاريخ الحقيقي إنما هو تاريخ النفوس وان المآسي العظيمة في تاريخ الحروب والانقلابات الاجتماعية والاقتصادية ليست الا علة او تعبيراً او تخريجاً او نتيجة للمأساة الحقيقية التي تمثل في أعماق القلوب. ان الله يريد خلاصاً يخرج من شعب من الشعوب ويريد الخلاص هدية لجميع النفوس. فالتاريخ الحقيقي تاريخ ديني هو تاريخ النعمة : وهو جوهرياً سر خفي يفوتنا أهم ما فيه الآ بعض علامات تبني عليها تخيلاتنا. لكن يجب أن نؤكد ان اشتغال الله — ان صح هذا القول — هو أن يمنح النعمة للبشر، لجميع البشر. فكيف نتّهمه بالحياد وعدم الاكتراث، ونحن نعتقد أنه لا يبرح يعمل في قلب المأساة يكلّم الانسان في باطن ضميره ويقدم له كل حين النور والقوة.

لكن تاريخ النعمة هو بدون شك تاريخ الحرّية البشرية، تجاه النعمة. فنحن هنا في النقطة الأساسية : لأن الله وهو حرّية وحب لا يلتفت إلا الى الحب والحرية. وليس للعالم عنده قيمة ولا نفع إلاّ لما فيه من الخلائق الحرة الجديرة بأن تحب حرةً، وتبلغ غايتها. والذي يجعل للعالم قيمة ليس ما فيه من العجائب المتناهي عظمتها أو المتناهي صغرها، وان أدهشت العلم. بل الذي يجعل للعالم قيمة إنما هو الانسان. والذي يجعل للانسان قيمة انما هي حرّيته : ففيها شرفه لأن فيها مشابهة لله. والله الذي اخترع حبه هذه التحفة بخلقه خلائق حرة، قد ارتضى أن يحتمل مسؤولية عاقبتها. فيلزم أن تكون الحياة امتحاناً للانسان معدّاً لإظهار ما في نفسه، امتحاناً يختار به الله، عن حب إذا شاء، وتقوم السياسة الالهية في مدة هذا الاختبار بتأمين ما يلزم من الضرورات حتى يتم بأمان وسلام.

فهناك قدرة الله وجودته . ونعمته ؛ وهناك حرّية الإنسان وإمكان خطئه : هذه هي أركان السر والعناصر التي تتخلل المأساة وتفسّر ما يحدث فيها من انتقلبات لتحيّر من يتوقف عند المظاهر .

ان لله أن يتأنى في أعماله ، لأنه أبدي . فهو يترك الشبكة تمتلئ من جميع أصناف السمك . واذا أتاه الخدام مضطربين قائلين : « يا معلم : لقد نبت الزؤان في حقلك بين الزرع الجيد فيجب قلعه ! » فانه يهدّئ من روعهم بقوله : « الانسان العدو قد بذر الزؤان بينما كان الزراع نائمين». أمّا هو فلا ينام رغم الظواهر ، ويعلم أنه لا يضيعُ شيء . ان الله يرى زمن الحصاد ووقت التنقية . هو رب السفينة ، يلقي في البحيرة شبكته الواسعة ولا مهرب منها ، فتهيج الأسماك في حبائلها ثم لا تلبث أن تنحصر فيها ، فيسحبها سحباً شديداً الى شاطئ الابدية وحينئذ يميز الأخيار من الأشرار .

ان الله له الزمان ، وهو يريد أن يكون للانسان زمان وفرص وامكانيات . فقد تحدث تقلبات لا يتوقعها البشر ، وهي غير خافية على من « يعلم ما في الانسان » ويعلم ما في النعمة . ولا يمكن أن تصبح السمكة الرديئة جيدة في شبكة الصائد ، ولا العشب البرّي في الحقل قمحاً ، ولكن المجرم الأثيم قد يصير قديساً بل قديساً عظيماً . فالله يعلم ذلك كل العلم . فتأنيه صبر وصبره صورة من حبه ، والاّ فكيف يحب الانسان الا حباً صبوراً . وهذه الأناة الالهية أبعد من ان تكون قصوراً وقد تبلغ نتائج عجيبة ، لكنها تظل سرّية . فقد أوحى الينا الانجيل بارتداد اللص الذي تدعوه « لص اليمين » وكم نرى بجانب هذا اللص السعيد من اللصوص الذين يملؤن جوانب السماء .

ان انتصار النعمة يتوم باستمالة الروح لا بسحق المعارضة . والله نفسه يجتنب طرق العنف وأساليب الاستبداد والإرهاب لئلا يعوق اختيار الانسان الحر . فهذا الاسلوب اللطيف قد يتسبب عن ضرورة خرق النظام . فلو كان القصاص ينزل سريعاً بالمخالف لأوامر الله ، ولو كان السارق وكل مستقلّ يعاقب حالاً بمصادرة امواله وكل زان يضربه بموت زؤام وكل دنس يصاب بداء عضال لحفظت الوصايا السادسة والسابعة والتاسعة أحسن الحفظ .

ولكن هل يصير الناس شرفاء واطهاراً حتماً؟ ولو كان لصوصية دولية وكل حرب ظالمة وكل وحشية يقوم بها شعب طماع يحل بالقائمين بها انتقام سريع. من مجاعات وأوبئة فتاكة. لساد في الدنيا، ولا شك: نظام بديع: فهل يكون بين الناس لذلك اتحاد أشد واحترام للعدل أعم؟

هل يسمي هؤلاء العبيد المروّعون: المتصاغرون: اللاصقون بالتراب أحسن عبادة لله: لأنهم لا يثورون؟ وعلى كل فليس هذا رأي من يسمّه الامر. أعني الله نفسه: كما يقول عنه بيجي بلغته المألوفة: «هؤلاء عبيد وما شأني وشأن العبيد؟ ومن ذا الذي يريد أن يحب او أن يحبه عبيد؟ لقد أردت ما بين خلائقي الحية شيئاً أفضل أردت أكثر، أكثر جداً: أردت الحرية، خلقت هذه الحرّية».

الله يتصرف في التاريخ

ان الله لا يتخلى عن حكمه. فهو رغم حكمه وتأنّيه إزاء حركات الإنسان الجامحة وأمام مجرى العالم المتناقر ليس ساهياً البتة ولا هو أعزل: حتى حين يلوح أنه متغافل لا يبرح يدير كل شيء ويبلغ به الى غاياته الإلهية. والدليل على قدرته أنه يترك البشر يعملون ثم يستخدم أعمالهم الحرة لإنجاز ما يريده حبه لهم. وهو كفنان عظيم يسخر من صلابة المادة وبما يكلفه الفن من المشقة ولا يرى إلا وسائل طيّعة لاتمام طرفة من الطرف. إنه لا يعرقل تدابيره جنون البشر ولا خطاياهم بل يجد فيما يحدثون من النكبات أسباباً جديدة للنعم وللخلاص أسباب انتصار لمن يحبونه ويريدون أن يحبوه.

أضواء على الماضي

إن نظرة الى ما مضى من التاريخ الديني ترينا نجاح الخطط الإلهية. فالقديس بولس قد عرف بدهائه وقوة إيمانه ان يميّز ما بين خرائب الزمان وأحواله، ملامح تاريخ النفوس الذي أراده الله ونظمه.

فخطيئة العالم — هذه الكتلة الكريهة التي تزيدها الأجيال ثقلاً على ثقل، هذا العار الذي يتسامح الله بالصبر عليه — كانت لازمة لاعداد القلوب للفداء، ولجلب ما أغلق عليها من الكفر، ولإثارة شوقها الصادق الى المخلص (رسالة بولس الى الرومانيين ١١: ٣٢).

وانكسارات اسرائيل المتالية وخيبته في سياسته الوطنية والزمنية كأنها تعارض المواعيد الإلهية. فهذه الانكسارات كانت أمرًا ضرورياً لكي تستطيع النفوس الفضلى على الأقل أن تفسّر تلك المواعيد تفسيرًا روحياً وتتصور الخلاص تصورًا صحيحاً.

ثم انتصار الشر في آلام المسيح — هذا الانتصار الصاخب، المعيب البالغ أقصى الخشونة — قد كان الوسيلة العكسية للخلاص؛ وقد عدّه بعض آباء الكنيسة النخ الذي وقع فيه مخترع الفخاخ الرهيب. فان الشيطان محرّض اعداء المسيح لم ينل من هذا الموت الشائن إلاّ ان يجعل المسيح غالب الموت علة الحياة للبشرية المفتداة. ان موت المخلص من قتل الموت وجبه أمات الحقد الذي كان محتدماً عليه.

وجحود اسرائيل، هذا الاخفاق الجسيم لمقاصد الله، الجحود الذي تحطم عليه عقل القديس بولس وقلبه، أن ينكر الشعب المختار دعوته، هذه الحماقة المخجلة قد بان الغامض منها منذ شرع الوثنيون يقبلون البشارة وينضمون تحت راية المسيح. «إن عمىً أصاب جانباً من اسرائيل الى أن يكون قد دخل ملء الامم» (رومانيين ١١: ٢٥).

ومثله الاضطهادات العنيفة في الأجيال الأولى حين جنّدت الدولة الرومانية كل قواتها على الكنيسة فكانت تلك الاضطهادات أنجح الوسائل لانتشار الديانة المسيحية ولانتصار الكنيسة على الامبراطورية.

وصف احد السياسيين حرب ١٩٤٠ بأنها «حرب الفرص الضائعة» أو ليس تاريخ البشر جميعه تاريخ فرص ضائعة؟ حاشا السياسة الإلهية فانها تاريخ الفرص المتتابعة بلا انقطاع ولا ضعف. وحينما نحسبها ضائعة فاذا هي محددة وأكثر جمالا. ان الله أمين يتقيّد بعهوده دائماً ويفي بوعوده فوق ما نتصور من الوفاء.

كيف عامل الله ابنه

ان ما يصدق على أحداث التاريخ الديني جملة يصدق على مصاير الأفراد. أما إن غاية التاريخ اليهودي وتاريخ الكنيسة أن يرمزا الى حياتنا

وتمثلا تاريخنا نفسه ؛ ولا سيما حادث المسيح المثالي الواجب أن يشيمنا مذاهب العناية في حياتنا.

فالآب الذي لا يدعه أبداً وحده ، الآب الذي يعلن على الملأ أنه ابنه الحبيب ، كأنه غير مكترث له ولا مهتم بان يسهل حياته ويمهد طريق رسالته . فيسوع يواجه الاضطهاد طفلاً ويلجأ الى الهرب لينجو من الموت : ثم يحتاج في الناصرة الى يوسف ليعمل ويقوته الى أن يتمكن هو من كسب معاشه بعرق وجهه . ولم يقدم له الآب في حياته الرسولية ما عرض عليه الشيطان من وسائل النجاح البشرية التي كانت تمهد الامور : ولا أنزل الصواعق انتقاماً من تلك المدن التي لم تقبل المسيح ولا تطوعت في بستان الزيتون أية فرقة من الملائكة لتمنع اليهود من القبض عليه . وظلت السماء فوق صليب الجلجلة صماء بكماء ، لم تنبس بكلمة ترد بها تحدي أعدائه . « يدعي أن الله أبوه فلينقذه » (متى ٢٧:٤٣) .

إخفاق صارخ

ولكن من يؤكد أن مصير المخلص يكون أجمل وأقدس لو أنه نجح نجاحاً بشرياً . فلم يعارضه أحد أو لو أنه سحق المعارضة بالقوة الإلهية : فلك ملك جبار على رعية ذليلة تحت سلطانه ؟ من يظن ان ابن البشر يكون أجمل واجذب للنفوس لو لم يرسم بالجراح التي استحالت تدوب نور؟ أو أن خلوداً سليماً كان أمجد له من اجتياز الموت والقيامة ؟

فخروج المسيح من القبر في فرح الفصح وصيرورته بمجدد مبدأ حياة وخير روحي ذلك هو الدليل البيّن على أن الله قادر أن يجدد كما هو قادر أن يخلق وذلك هو النجاح التام للخطة الإلهية أن تتوق الحدود فتصلح وتعيد الشيء خيراً مما يمكن توقعه أو يرجى تصوره .

كيف يعامل الله بنيه

ليس المسيح مثالا فقط لنا بل هو قدوة ، وليس أسوة فقط بل هو بداية وسبق ، وما مصيره الا رمز لمصيرنا وحياته رسم لحياتنا ونحن بالابن الوحيد أبناء محبوبون .

غير أن العناية لا تمهد لنا بالعجائب سبيل السواء ونحن ولا أمر مصيرنا ومصير المسيح ؛ وان يكن تدخّل الله وسروره في حياتنا أمرًا غير ممتنع . فإن في لورد وفي غيرها من المعابد عجائب ولكنها عجائب عارضة : فقليلون الذين يشفون وكثيرون الذين يعودون الى ديارهم محمولين ؛ وهذه العجائب على قلتها هي دلائل يقول الله لنا فيها : « ان هذه الأحداث غير المألوفة يجب أن تنبهكم أني أتدخل في حياتكم . رغم الظواهر ، واني في كل لحظة أعمل بنوع خفي أعمالاً فعّالة : وهذا الدليل الحسي ينبغي أن ينبهكم اني أحبكم دائماً .

وكأن الله في غير هذه الظروف النادرة يترك الأمور تتبع مجراها . فقوانين الاقتصاد والسياسة توزّع ثمراتها بلا تمييز ؛ يستغلّها أحباء الله واعداؤه معاً اتفاقاً او اجتهاداً ؛ وتشملهم الأزمات وتسحقهم النكبات على السواء ؛ فالمؤمنون غير محصّنين ضد المرض والفقر والعذاب والاضطهاد ؛ وربما ناهم منها النصيب الأوفى ، لأنهم ضحايا مجهزة وفرائس أسهل صيداً لمن يريد الشر .

ومن العبث أن نبحث عن التمييز بين أعمال العناية فيما يخص ما نسمّيه السعادة . فقد عبّر عن ذلك أحد الكتاب العصريين بعبارة عنيفة قال : « ان ما يمنع من لمح العناية هو العمى الاعظم أي خيال السعادة . فلو شئنا أن ننظر الى مصير كل من حولنا ونبحث فيه عن غاية أخرى غير السعادة لتجلت لنا يد الله . فلماذا نفرض ان العناية انما تسعى ببلاهة لسعادة كل إنسان ؟ »

وقد عبّر الاب سرتيلنج عن هذه الفكرة نفسها بلهجة أكثر لباقة فقال : « ان العناية هي محنة رهيبة لا عاطفية ولا خيالية ، ولكنها بدون ريب محنة . أفيعجبنا أن يغلبها الشعور ويغلبنا ؟ إنها تهجس بنا وتقدم لنا كل ما يلزم من الجدم مثل كثيرين ممن لا ينالون الا المديح . فما أكثر العصي في أيدي الوالدين والعقوبات عند المعلمين والسم في واجهات الصيادلة ، وما أكثر الملاقط والمشارط في أدراج الجراحين . »

ولا يقصد الله في هذه الرأفة الصارمة القليلة الضعف والعطف أن نكون بخير وعلى أحسن حال بل أن نكون طيبين ، وأن نصير أطيب ،

وأن نلاقي لذلك في العالم وفي حياتنا الخاصة لا نجاحاً خالياً من المتاعب بل فرصاً تؤدّبنا وترفعنا.

وهذه الخطة لا توافق ذوقنا غالباً. لقد قال ربنا للتلميذة ترزيا وقد كانت مرهقة بالمتاعب: «يا ابنتي إني هكذا أعامل أحبائي.» فأجابته بما كان يسمح لها به حبها من الدالة: «من أجل هذا، يا سيدي، هم قليلون.»

فعلى هذا الضوء يجب أن ننظر الى العناية وإلى فعلها التدبير: فان الله يترك القوانين الطبيعية تجري مجراها، غير عابئة بمصالحنا، ويترك البشر يسلكون مراراً سلوكاً مؤذياً لنا إلا أنه يوجّه كل هذا الى خير اوليائه الأعظم. كتب القديس بولس في رسالته الى الرومانيين (٨:٢٨) عبارة يمكن فهمها جيداً بدون زيادة عليها: «إن الذين يحبون الله يؤول كل شيء إلى نفعهم.» ويشاء الله أن ما يبتلون به من احداث العالم العظمى: من حروب ومجاعات ومنفى... ومما يصحب حياتهم من أتراح واتراح ونجاح واخفاق وتجارب مزعجة او تقوى وتغذية، كل ذلك يشاء الله ان يكون نعماً وفرصاً يقدمها لهم ليزدادوا حباً له ويستعدوا بها لحياة ابدية أكثر جمالاً.

حتى ما نسميه بلغتنا الوثنية نكبة سوداء وداهية دهياء وحظاً عاثراً... كلها ينتج الله منها خيراً للذين يحبونه. ولهذا يوصي ربنا رسله بهذه الوصايا المذهلة: لا تخافوا ممن يمكنهم ان يقتلوكم ثم لا يستطيعون شيئاً (متى ١٠: ٢٨) لا تخافوا ممن يقتلون الجسد، تلك تفاهة، اهتموا خاصة أن تكونوا في سلام مع الله رب الدهر والابد.

ان حادثاً من الحوادث قد يبدو للعين ناتجاً عن قوة عمياء او ناجماً عن شرير يكرهنا ولا يكون على الحقيقة الا دليلاً على المحبة الالهية.

ويمكن القول أن من خصائص العناية انها تحمّل كل حادث نعمة، وتفتّح في ادغال الاشواك أزهاراً علينا نحن أن نجنيها: «كم نعمة، لا تستقل بشكرها، لله في طي المكاره كامنة».

لا نحاول أن نلقّن الله دروساً. فكل ما يصنعه يستحق العبادة وهو نعمة سابغة.

موقف المسيحي : الرجاء

لا حقيقة نظرية في العقيدة ؛ وتعليم العناية أقل نظرية مما سواه ؛ فهو يقتضي منا أن نتعاون ان يكون عندنا استعداد ؛ استعداد نفس وهذا الاستعداد النفسي يمكن إيجازه بكلمة : الرجاء . ولا بد من تحليل عناصر هذا الرجاء المسيحي وتحديد أركانه .

إنه يفرض أولاً وجود الإيمان — إيمان حي — بالعالم غير المنظور وبالحياة الآتية ، إذ أن العناية ليست موضوع اختبار مباشر وموضوع تحقيق . فما نختبره ونحققه قد يغدو سبباً للريب ؛ لان الظواهر كثيراً ما تكون ضد الله . ولا نغتر بفهم كلمة ظواهر فعالم الظواهر ليس شبحاً بخارياً يتشع عند أقل تفكير بل هو جامد جداً : فالظلم والفساد حقيقتان واقعيتان تدخنان نفوسنا جراحاً ؛ يقول جبريل مرسل : « إن التناقض الأساسي في المسيحية يقوم بأن نقول : إن الشر مغلوب منذ الأزل والاّ كنا ماتوبين واذا راعينا الظواهر العالمية ، ما دمنا في محنة الحياة ؛ وجدنا هذه الشرور لا تزال على شدتها وكثيراً ما تدعونا الى اليأس والكفر .

واذا عدنا الى أمثال الإنجيل يدهشنا ما نرى في شبكة الصيد العظيمة من كثرة السمك الردي المختلط بالسمك الجيد ؛ وما نرى في حقل أبي العائلة من نمو الزوان بين القمح ؛ ومما يحيّرنا في مشاهد التاريخ اجتهاد أعداء الله لكي يطردوه من العالم ، وأغرب من ذلك سكون الله نفسه . ان تفصيل حوادث البشر لمما يدعو الى اليأس كما يحدث لقارئ الصحف « لا ينتهي من قراءتها إلا يائساً » . فليس لنا سوى الايمان — الايمان الحي — فهو وحده جدير بالمقاومة المطلوبة من المسيحي . ولعل الرجاء أجل فعل إيمان . يقول بيجي على لسانه تعالى : « أحبّ إيمان إليّ هو الرجاء » إذن إيمان ورجاء شيء واحد ولا بد من اضافة « حب ورجاء شيء واحد » فالرجاء هو التسليم وهو غالباً فعل بطلي وإكرام عظيم لله وفعل حب ممن يؤمن بالحب .

وفي الموقف المسيحي أمام العناية شيء آخر غير التسليم متى تضمنت هذه الكلمة معنى الجمود القسري والألم المكتوم من سلوك المشيئة الالهية حتى السلوك المكروه . فقيمة الرجاء في أنه يقتضي الانطراح البنوي بين

يدي الله الذي نصرّح رغم الظواهر أنه ليس خصماً لنا ولا متعصراً نحونا بل انه ابونا. واليك صلاة السيدة اليصابات شقيقة الملك لويس ١٦ وقد أوحى بها ربنا اليها وهي في السجن أيام الإرهاب : بين وحشة الحاضر وتبديد المستقبل :

« اللهمّ . ما تراه ينزل بي اليوم؟ ما أدري . كل ما اعلم أني لن يصيبني إلاّ ما قدّرته منذ الأزل. وهذا يكفيني لأظل مطمئنة. إني أعبد أحكامك الأولية وأخضع لها من كل قلبي ، إني أريد كل ما تريد ، وأقبل كل ما تريد وأضحّي لك بكل شيء ، وأضمّ هذه التضحية الى ذبيحة ابنك العزيز مخلصي وأسألك ، بقلبه الأقدس وباستحقاقاته غير المتناهية ، نعمة الصبر في مصائبنا والخضوع الكامل الواجب لك في كل ما تريده وتسمح به . »

فهل من قلب بشري أنشد العناية أجمل من هذا النشيد؟

ها هي ذي المسيحية بمعناها الصحيح . ان الرجاء المسيحي منزّه عن الأماني الأرضية التي تحاول أن تتسرب اليه نظير آمال اسرائيل. وهل لاحظنا ما في فعل الرجاء من صيغة الاختصار في تعليمنا المسيحي؟ وما يوجبه على كل مؤمن من إنكار الذات : فهو يرجو رجاء وطيداً عون النعمة في هذه الدنيا والبلوغ بها الى مجد السماء ولا ذكر فيه للنجاح الزمني .

أما إن انكار العناية ومعظم التجديف عليها متأت من أن البشر ينتظرون من الله أن ينظّم لهم عيشاً هنيئاً ويتعهّد لهم بلذات رخيصة؟

ويحسّ الانسان بالخيبة عادة لانه اعتمد على وقوع حادث فلم يقع فظن أنه خدع وأن ذلك نقض لعقد سابق ؛ وحقيقة الأمر أنه يجهل الرجاء من أساسه. فقد ترجى حصول شيء : ترجى شيئاً ولم يترجَّ أحداً . وقد حلل فيلسوف عصري هذه الحالة بأنها ضلال منطقي « فعمل ترجّي أصبح عنده ترقّب ومن ثم قد صار اعتمد على ، واخيراً أمسى ادّعى على أو طالب . والمطالبة ضد الرجاء المسيحي ، لان ليس ثمّ إلاّ رجاء واحد حقيقي . » « ارجوك أنت وحدك يا إلهي » .

المسيحي وعالم اليوم

الرجاء هو الرضى بأحكام الله ؛ وقد سبق أن قلنا ان الله الدائم متأنٍّ ؛ أما نحن الزائلون فمتسرّعون ؛ لا نتوقف عند وجوب التوقف بل نروم بلوغ المراد قبل الأوان ؛ على أن «من تأنّى نال ما تمنّى» .

الرجاء المسيحي وداعة وتواضع واحترام لقوانين الحياة وأساليب النعمة : أعني هو الخضوع لله ، هو صبر وانتظار . ليس الرجاء ذلك الموقف السلبي ؛ موقف من ينتظر نهاية مشهد او ختام رواية .

الرجاء جد ونشاط والمسيحي رجل أعمال لا أقوال . كان الرسل يوم صعد الرب ساهين ينظرون الى السماء فتقطع الملائكة تخيلاتهم ووجهوا أبصارهم الى الأرض وكان القديس بولس يوبخ من يستسلم الى الكسل من المؤمنين الأولين ؛ محتجين بان المسيح عائد بمجده قريبا (تسالونيكي الثانية) .

لا شك ان العالم الحاضر لا منفعة له في فكر الله إلاّ انه استعداد للعالم الآتي ؛ والحياة الحاضرة ما وجدت الا للحياة الخالدة ، والمدينة الأرضية الا للمدينة المستقبلة . غير أن الأبدي انما يعدّ في الزمان ، والمدينة الدائمة تشيّد بمواد أرضية ، والمسيحي في وسط العالم البشري ينظم هذا العالم ويجعله أكثر خيرًا أو أقلّ شرًا فيدخل فيه مزيدًا من الهداية والعدالة والمحبة ؛ ويقاوم الفساد وعدم المساواة وهو اذ يحاول ان يجعل مدينة البشر أكثر مسيحية يبني مدينة الله حجرًا حجرًا .

فهو لا يحتاج الى شجاعة عظيمة ؛ وفضله في عمله أنه لا يعتمد على أوهام مشجعة من التفاؤل . فالمسيحي يعلم أنه لن يكون على الأرض مساء مدهش ولا صباح فتّان ؛ بل لن تبرح الأمور تسير الى السوء يوماً بعد يوم . فلا بدّ للصياد من مزاج قويّ حتى يقول : ألقي الشبكة ، وهو عارف ان الصيد سيكون ضئيلاً ولا بد للزارع من بأس شديد حتى يحرث الأرض وهو يتخيّل العشب الرديء نابتاً بعد أشهر بين القمح . وما يلاقيه من المصاعب ومن بغض الاخفاق ليس عذرًا كافياً للكسل . فاليأس خيانة تجاه الله وتجاه النفس ومؤامرة مع العدو . ونقض الرجاء والجمود نوع من الخيانة وعزم على الانتحار ، فمن هجر ساحة العمل كمن هجر محرس الوطن .

هناك حقاً ساحة لعمل مشترك يجب على المسيحي أن يعدّ نفسه مسئولاً عنه. فالآب الذي يعتني بكل عصفور وبكل زهرة من أرض الجليل يحب كل واحد من البشر حبه له لو كان وحده في الدنيا: يحبه بابنه الذي هو البكر بين كثيرين من الإخوة. يحبه بالعالم البشري الذي يريده أخوّة. فمن عزم أن يعاون العناية لزمه أن يعمل على انجاح هذه المغامرة: المشتركة العظيمة فليس من خلاص فرديّ يصير خلاصاً أنانياً. فالرجاء المسيحي يقتضي دائماً الاتحاد ويساهم في تحقيقه على أكمل وجه. واذا صح أن الحب لا يقوم بان ينظر أحدنا الى الآخر بل أن ننظر معاً الى جهة واحدة؛ كان الرجاء افضل شيء يمكنه منذ هذه الحياة أن يكوّن «نحنا» في انتظار وإعداد «نحن» الحقيقية في السماء «نحن» التي تكلم عنها المسيح في صلاته الأخيرة «فليكونوا كلهم واحداً كما أنك أنت يا أبت فيّ وأنا فيك... فليكونوا مكمّلين في الوحدة».

ان هذا التفاؤل أكيد لا خداع فيه، لأنه مؤسس على صدق الله ومواعيده. إنه يقتضي عملاً عاجلاً موجهاً دائماً نحو العالم الثاني: يسمح لنا أن نحيا في الحاضر «كأناس قد جاؤوا من المستقبل» هذا هو الموقف الذي يطلبه من المسيحي إيمانه بالعناية. وهذا هو الموقف الذي يطلبه عالم اليوم. كان أحد الكتاب يقول من قريب: «إن ما ينتظره العالم منا هو كلمات الرجاء: لأن الجيل الحاضر لم نره يطلب الا أمرًا واحدًا: أن يكون في مستوى اليأس الأعلى. وربما كان هذا مما يهيب بنا الى التكلم عن الرجاء الأسمى الذي نحاول البحث عنه ما بين البؤس البشري. فيكون شبه انتصار.

يمكننا أن نزعم أن وجودياً لا يؤمن بالله هو غير أهل لأن يبشر بالرجاء. أما المسيحي المتخصص بالرجاء فأي مسئولية عليه إن تردد عن إسماع الناس كلمات الرجاء التي ندعوها إنجيل الآب السماوي ورسالة المسيح الذي مات وقام لأجلنا.

فلا يكفي المسيحيين أن يبحثوا بين البؤس البشري «عن شيء يشبه انتصاراً»، وقد يكون غروراً. فانهم يمكنهم بل يجب عليهم أن يبشروا، وسط البؤس، بالنصر الحقيقي الذي يطلبه العالم؛ وبهذه الطريقة يبدلونه من الأماني رجاء.